

تخفي تاريخي

مولاي اسماعيل

والأميرة دوكتي

للأستاذ ابن زيدان



ذكر بعض مؤرخي أوروبا أنه لما رجع سفير مولاي اسماعيل، عبد الله بن عائشة الرئيس البحري الشهير من بعض سفاراته في فرنسا، وتلاقى بمولاي اسماعيل، كان من جملة ما وصف له عند الإيفاء إليه بنتائج سفارته جمال الفتاة دوكتي بنت لويز الرابع عشر، فكان ذلك أعظم باعث لمولاي اسماعيل على خطبتها من والدها بواسطة سفيره المذكور. غير أن والدها لم يحقق رغبته، ولم يمر أذن التفات خطبته، لأسباب: منها عدم ملاءمة طبعها لطبعه، ومباينة تبعها لتبعه، وتعدد أزواجه وسراريه، وكثرة حشمة وذراريه، إلى علل أخرى هي أولى بعدم الذكر، وأخرى لبعدها عن الحقيقة، ولتلون منامزها ومغازيها الدقيقة طالما بحثت ونقبت بتعشش لحجة يستند إليها في إثبات هذه

وتسعين مليوناً وهو يطلب مائة؛ فأنا بدنانيري التسعة أسعد من روكفلر... وكذلك الانسان في الماضي لم تكن مطالبه كثيرة فكان سعيداً لأنه يستطيع أن يصل إليها، أو إلى أكثرها؛ أما مطالبه اليوم فهي كثيرة جداً لا يستطيع أن يصل إلا إلى بعضها فهو غير سعيد!

هذا وأنا لا أعني الأدب بمعناه الضيق، أي الكلام المؤلف تراً أو نظراً، بل أعني الأدب بالمعنى الآخر؛ أريد كل ما كان وصفاً للجمال وتمييراً عنه، لا فرق عندي بين أن تعبر عن جمال الفتاة بصورة أو تمثال أو مقطوعة من الشعر؛ ولا فرق عندي بين أن تصور غروب الشمس بالريشة والألوان، أو بالألفاظ والأوزان، فالوسيقى أديب، والمصور أديب، والنحات أديب، والشاعر أديب؛ والأدب بهذا المعنى أهم من العلم. وأنفع للبشرية... ولو كره المألون!

على الطنطاوي

الأحدثة التربية الغربية في بابها، بالطرق الرسمية، فلم أشر على شيء يستحق الذكر فيها، أو تظمن إليه النفس، سوى ما جاء به بعض مؤرخي أوروبا، مما لا سند لهم فيه، فيما علمت وقرأت غير كتاب ابن عائشة المذكور، ذلك الكتاب الذي سأفيض القول فيه وفي قيمته فيما يلي بحول الله. ثم جال بفكري أنه لا بد أن تكون هذه القضية، إن كان لها أصل، ثابتة مسجلة بوزارة الخارجية، فرحلت إلى فرنسا. ولما حلت بعاصمتها باريس ذهبت أولاً إلى وزارة خارجيتها، فقوبلت من رؤسائها بمزيد الاحترام والاعتناء، وحملت على كاهل البرة والاحترام، وسرعدت على تصفح كل ما يهمني في بحوثي التاريخية، من الوثائق والأوراق الرسمية. نجحت خلالها أياماً أبحث وأقرب، وأخذ ماراقي بالتصور والتفكير، فلم أجد من بين أواخر تلك الدخائر ضالتي للشودة، فرجعت أدرأجي، وأعملت الفكر في هذه القضية، وقابلت بين هذا الكتاب الملصق بابن عائشة، وبين غيره من المكتاتيب الرسمية الراجحة إذ ذاك، حتى المكتاتيب الصادرة من ابن عائشة، الممضاة بخط يده، فلم أجد بينها وبينه مناسبة ما، لا من حيث الأسلوب الدبلوماسي الجاري به العمل في ذلك العصر، ولا من حيث التقصير الواقع في هذا الكتاب، بالنسبة لأهمية هذا الأمر الجلل

أما من حيث الأسلوب الدبلوماسي، فإن كل من يرجع إلى تاريخ الملائن السياسية الخارجية إذ ذاك وما صدر فيها من المكتاتيب والوثائق الرسمية الاسماعيلية، يدرك بالبدهة أن نسبة هذا الكتاب لابن عائشة المشتمل على هذا الأمر المهم، إنما هي خيالية فحسب، لجريانه وصدوره على غير المألوف والمعهود من الأساليب الكتابية والدبلوماسية المتبعة إذ ذاك

وأما من الحينة الأخرى، فإنه يعد كل البعد أن يخاطب ملك عظيم إلى ملك عظيم بنسبه وهو أجنبي عنه بهذه الوسيلة الخلة بعظمتهما معاً، إذ التقاليد تقضي في مثلها ألا يصدر فيها مثل هذا الكتاب الذي هو أشبه برسالة تكتب لمطلق إنسان، بأسلوب يرى بعظمة السلطات، ويقضى بيله هذا السفير العظيم الشأن، إذن فما يقتضيه الحال حينئذ؟ يقتضى أن يجرى في ذلك كتاب رسمي، باسم جلالة الخاطب لجلالة المخطوب إليه،

الخطير أن يعلي على كاتب أجنبي نص هذا الكتاب الخاص بمولاه ، التعلق بأمرهم ، من الواجب أن يكون سرياً لا يتجاوز الخطاب ، والسفير يعلمه عليه باللغة الأسبانية ، ويلزمه بترجمته إلى اللغة الفرنسية ؟ هذا ما لا يوافق عليه عظمة الخطاب ومهنة السفير ، ولا يقبله العقل السليم ، ولا يصدق الواقع ، حتى فيها هو أقل من هذا الأمر الخطير ، وإلا فإن كتاب الدولة و مترجموها ، المتنون بتنسيق مكاتبها ، وتطريزها بالذهب ، وتلوينها بأصباغ مبهجة خلاصة راتقة ، بطرق فنية ، امتاز بها كتاب المملكة المغربية ؟ ما بقي لنا إلا أن نسأل قائلين :

هل يمكن أن يكون ابن عائشة وضع هذا الكتاب افتياناً منه على ولي نعمته وهو لا يعلم ، ووجهه للملك لويز ليحس بنضه في الأحداث التي لم تعزز ثانية في بابها ، حتى يعرف من أين تؤكل الكتف ، فإن نجح مسعاه قدمه قرباناً لمولاه ، بين يدي نجواه ، وجاء ازدياد تمكن وتقرب منه ، وإن أخفق وخاب كتم الأمر عنه وقنع بالحالة التي كان عليها معه ، ولذلك كله تجشم مشقة الالتجاء إلى ذلك الكاتب الأجنبي ، وإملاء الكتاب عليه بنص أسباني أجنبي ، وإلزامه بنقله إلى نص فرنسي أجنبي . واكتفى بوضع الخاتم عن الامضاء بخطه ، ولكن هناك عقبة كأداء تعترضه في هذا السبيل ، وهي أن هذا الأمر من الأهمية بمكان ، وليس بالأمر الهين الذي يمكن تمشيه والوصول إليه في طي الخفاء ، ولا يؤدي به إذا أخفق فيه إلى عقاب سلطانه وجفاء .

إننا نعلم جيداً كيف لنا أن الغرب كان إذ ذاك طاغياً بكتاب بارزين هم أولى باسناد هذه المهمة إليهم ، وأحق بالقيام عليها ، لو كانت تخطر ببال ، فكيف عدل ابن عائشة عنهم إلى هذا الكاتب دون سواء ، وهو كاتب أجنبي لتاجر أجنبي ، لا علاقة له بمطلق شؤون الدولة ، ولا بالبلاط السلطاني وكيف اطمأن إليه في هذه القضية المهمة ، التي يتوقف علاجها على كاتب ماهر من كتاب أسرار الدولة الممارسين لها العارفين بأساليبها ممن يتلاعب بأطراف الكلام ، ويدأوى يلسم بلاغته الكلام ، ويوصل بسحرياته إلى هدف القصد والمرام ؟ فهل بلغ البله ابن عائشة إلى هذا الحد ، فخطب أعظم ملوك أوروبا إذ ذاك بمثل هذا الخطاب الصياني في خطبة فلذة كبده ، وريحانة قصره وقرعة عين ملكه ملك عظيم ، عرف بملوهمته والشهامة والنيرة ،

ويرسل حجة سفير عظيم ماهر كبن عائشة ، مع هدايا نفيسة ، وتحف مغربية تستلفت الأنظار ، وتحف المخطوبة من الاعتبار باطار ، وتقضى بنيل الأوطار ، طبق المقرر المعتاد في السفارات المتبادلة بين الملوك فيما هو أوهى وأوهن من هذا الأمر

لا بد أن أعرض على القراء نص هذا الكتاب ، وكيف وجد وبأي لغة كتب ، ولأي لغة نقل ، وبشهادة من يراد اثباته ، عما لم تجر به عادة ، ولا ارتكب مثله لا في البدء ولا في الإعادة ، لتعلموا قيمته :

هذا الكتاب نقل عن مجلة فرنسية ، سميت مجلة فرنسا ، وكتب لأول مرة باللغة الأسبانية ، ولم يحرر أصله الموهوم باللغة العربية ، التي هي لغة من ألصقت نسبته به ، والتي هي لغة الدولة المغربية الرسمية ، والتي كانت تخاطب بها الدول الأجنبية ، ونقل من اللغة الأسبانية إلى اللغة الفرنسية ، والذي شهد على ابن عائشة به كاتب أجنبي لتاجر أجنبي كان مقبلاً بسلا في ذلك العهد ، وإذا تحققت هذا وأحطت به علماء . فإليك نص هذا الكتاب منقولاً عن المجلة المذكورة عدد ٦٢ مترجماً بقلم رئيس الترجمة العلمية بالرباط سابقاً الكندار إسماعيل حامد الأشهر :

« وبعد فقد أمرني مولانا السلطان على أنه إن كان جواب ملك فرنسا موافقاً لما تضمنته كتابنا هذا فأجهز للسفر على أي مركب من المراكب الحربية الفرنسية ترد على مرسى سلا أو غيره لأوجه إلى حضرة سمو ذلك الملك الفخيم وأعرض على جنابه ليلي المعاهدة التي يرغب سيدنا عقدها معه بمزيد الاشتياق والفرح ، أن أحقق لديه بكل التأكيد بأنه بفتخر سيدنا بمصاهرة أعز الملوك وأجلهم ، وأن يبيح له الدخول في جميع مراسي الإمالة لشريفة وسائر مدنها وأقطارها ، وكذلك لكافة رعيته ، وعليه شهد أن القبطان عبد الله بن عائشة هو الذي أملى عليّ هذا لكتاب باللغة الأسبانية ، ثم أئزمني بترجمته إلى اللغة الفرنسية لأجله موضع فيه خاتمه والسلام . الامضاء : جان ماني دولا كلوازري نازل بمدينة سلا في مقابلة تجارة السير جوردا ، وكتبه في ١٤ فبراير سنة ١٦٩٩ موافق ٢١ جمادي الأولى سنة ١١١١ »

هذا أصل الكتاب . وهذه ترجمته حرفياً فلنبحث الآن فيما مَصْنُود أو مَصْنُود ، لتكون على بينة من أمره ، ولنفيز بينه وخره ، فنقول : هل يمكن لابن عائشة ، وهو ذلك السفير

عنه تمام البعد؟ بل كيف يمكن تدخله فيه، وهو بهذه الثابة، مع وجود من تسيخ التقاليد الدولية تكليفه بذلك من وزراء ورؤساء القولة الاسماعيلية المدنيين السياسيين؟ بل كيف لا يفتن مولاي إسماعيل لذلك، وهو ذلك الملك الألى «الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سما». ينسب لكل مهمة أهل بلواها، حسباً شهد له بذلك غير واحد، حتى من ساسة أوروبا؟ قال الأب يستوفى مؤلفه المنون بحكاية حوادث المغرب، صفحة ٣٥ منه في حقه: يدرك ما يدور في ضمير مخاطبه قبل أن ينطق بمراده. إلى أن قال: بصير بمواقب الأمور، أخذ بالأحوط في متوقع الحوادث، وبصفحة ٦٠ منه لا يسند تدبير أموره بغيره من قواد وكتاب، ولكن يستشيرهم فيما عزم عليه فيجذبون.

لو كان هذا الكتاب صحيحاً، لجاء على صورة المكاتبة الدولية، وبأسلوبها، ولكانت له أهمية كبرى، وطنين وورثين في الدوائر الإدارية الفرنسية ذات الشأن، ولاحتفظ بأصله، كما احتفظ بغيره، مما هو أنفع منه في السجلات الدولية والفرنسية العدة لذلك، ولتناقله كتاب ذلك العصر من مؤرخي الشرقين، والغربيين، فقد تبعت بقايا اليفظة والتثبت جل المصادر المتعلقة بتاريخ دولتنا الاسماعيلية، مغربية وفرنسية، وغيرها مما كتب بلغات مختلفة، وأساليب متعددة في ذلك العصر، كرحلة مويط، وتاريخه للدولتين، الرشيدية والاسماعيلية، وسواها كثير، فلم نثر على شيء، ولم نقف لهذه الأحداث على أثر ولا خبر يسمع وتطمئن النفس إليه، ولطالما تباحث في ذلك مع جماع من علية المستشرقين وغيرهم، فلم يفيدوا بما يحسن السكوت عليه ومنهم من وعد بالبحث في موطنه، وبعد مدة أجب سلبياً وغاية ما هنالك، رواج القضية حتى استفاضت بدون استئنا لأصل أصيل يثبتها، ولقد أجهد نفسه البجاة الكبير الكثرة هنري دوكتري، وهو من هو في البحث، والتنقيب، عمو أن يصل إلى أصل يعتمد عليه في الإثبات، بصفة رسمية، ف يظفر بشيء كسابقه، ومن أتى بعده، وكل من ذكرته في هذا الموضوع من المؤرخين المستشرقين وغيرهم، وبينت له وجه نظري في إبطال القضية، ودحضها بالحجج الواضحة، جذب النظر واقنع بها

والباحث المولع مثلي بالبحث والتنقيب عن الآثار والوثائق

والمحافظة على أبهة الملك وسطوة السلطان؟ هذا يسأل عنه من درس حياة الخاطب، وسيرة سفيره ابن عائشة معه، وما لسفيره هذا من المكانة المكيئة في العقل والدهاء ونفوذ البصيرة، وعدم الدخول في ميادين الفضول، والبصر بما يصلح من الشؤون الدولية، ومالا يصلح، وعدم تجاوزه لحدود وظيفته، وما تقتضيه رسوم مراتبته، فلم يكن ابن عائشة مغفلاً ولا أبه ولا إمعة ولا فضولياً ولا زئاراً حتى يأتي بسر من أسرار سنيه، لو كان، ويضعه بين يدي كاتب أجنبي لتاجر أجنبي، وتخرج بإطلاعه عليه والإفشاء به إليه ليفضي به لدولته، فيذيع ويتشرب قبل وصوله لصاحبه المخاطب به، ويشهده مع ذلك على نفسه، وهو يعلم قيمة شهادته عنده وعند غيره إذ ذاك

نحن لانشك في أن المصاهرة هي من أكد الملائق وأوثقها بين ملوك الدول، ولا زال الملوك يرغبون فيها، توطيداً لدعائم عروشهم، وتثبيتاً لمرأى كرمهم، وتسييراً لنفوذهم، وسمياً وراء تأمين ممالكهم، فليس هناك من عار يلحق الجد أبا النصر إسماعيل لو ثبتت خطبته لبنت أعظم ملوك أوروبا في عصره، سعيًا وراء ربط علاقته معه برابط من المصاهرة وثيق، واستطلاعه على أسرار دولته، الذي لا يتأتى إلا بالمصاهرة، وليس في الدين الاسلامي مانع منه؛ ومن الضروري لدى كل المسلمين أن الشرع الاسلامي، يبيح الزواج بالكتابية، وفرنسا من أهل الكتاب، فيثبت الاداعي لتستر الجد مولاي إسماعيل، ونسبته في هذا الأمر الذي يبيحه شرعه القويم لو شاء، ولا موجب لالتجائه إلى هذه الخطبة بهذا الأسلوب اللرب الغريب المحل بعظمته وعظمة المخطوب إليه، كما أنه لا داعي لارتكاب ابن عائشة هذه الهفوة، وهو ذلك السفير الحازم (الضابط) المحرب العارف بمقتضيات أحوال الملوك وما تتطلبه مناصبهم ومراسيمهم، وما تتنافس فيه نفوسهم الطامحة من التنافس فيما يظهرهم بمظاهر العظمة والجلال والفخار المطلق، على أن ابن عائشة إنما كان سفيراً في الشؤون الراجعة إلى وظيفته، ولا شك أن هذا الأمر ليس منها في قبيل ولا دبير، فلم يكن ابن عائشة في الدولة الاسماعيلية وزير خارجية، وإنما كان رئيس البحرية، يترأس الأساطيل المغربية التي كانت تخرج عاب البحر إلى شواطئ الدانمارك، وفرنسا، وغيرها، فكيف يمكن أن يكلفه غدومه بهذا الأمر، وهو بعيد

جعله يزو هذه الزوة التي تقضى على ما عرف به من الثبات الذي يحطم الزوات والوثبات والشهود له به من كتاب عصره سواء في ذلك الأوروبيون وغيرهم ، بل صيره ينزع هذه النزعة التي تجعله في صف الذين تقودهم غرائزهم إلى الهيام بما يرضيها ويشبع نهمها بأي وسيلة كانت ، مع أنه كان بقصره الفاخر المأمر من الأزواج الطاهرات والسراري وأمهات الأولاد الأعجميات الجيلات ما ينيه ولا شك عن التعلق بفتاة وإن كانت أميرة بعيدة عنه تمكن أحد سفراته من وصفها بكل دقة ؛ فقد نص « يدجان مكان » في تليفه على ما كتبه « سان أولون » على أن مولاي اسماعيل ، وإن كان ولوعاً بالنساء ، فإنه لم يكن من الذين يستهويهن ، ويستولي على فكره ، بل كان مقتصرأ على ما تدعو إليه الحاجة إليهن ، ولم تشغله كثرة نساءه عن تديرشئون مملكته ، والنظر في مصالحها ، إلى آخر ما قال من هذا القبيل فليُنظر في كتابنا « النزاع اللطيف ، في التليخ لمفاخر مولاي اسماعيل بن الشريف » وليس سفيره ابن عائشة بذلك التهور السخيف ، الذي يتجرأ على مولاه وسيد ، بوصف هذه الفتاة له وجهاً لوجه ، وهو الذي كان يقف بين يديه وقوف الملوك بين يدي مالكة ، بأدب واحتشام ، وتب لقامه واحترام

والذي يرفع نقاب الفموض عن هذه القضية ، هو ما كان بين الخاطب والمخطوب إليه من غاية الرعاية وتعام المودة ، وحسن الملائق ، والمحاطبات التي كانت أكبر عنوان على تعظيم أحدهما للآخر والتنويه به . واعتناء كل منهما بأجابه صاحبه عن كل أمر له علاقة بتوثيق الملائق السياسية بينهما ، وأي علاقة تضاهي علاقة المصاهرة في هذا الباب أو تحمل عملها ؟ فكيف إذن تصح خطبة سيدنا الجدة اسماعيل الأكبر منه بهذه الصفة ؟ وكيف لا يجيبه جواباً يبر فيه عما تكنه نفسه للجد من إجلال وتقدير عهداً منه في غير هذا الأمر ؟

هذا ما ظهر لي في هذه الأحذنة أبدية ، راجياً من الباحثين والمؤرخين أن يرشدونا إلى أصل ثابت غير الكتاب الذي أبدت فيه رأيي ، ولهم مزيد الشكر مني سلفاً ،

أبنة زهدامه

« الرباط »

التاريخية ، ولا سيما ما كان متعلقاً منها بسلطاننا الطاهر ، لا بد أن يكون جد مسرور لو عثر على ما يطمئن نفسه ، ويقر في قرارها ثبوت هذا الأمر الخطير بالطرق الرسمية المعروفة التبعة . هذا ولا عار يلحق الخاطب العظيم ، لو كان هذا الكتاب صحيحاً ، رجذاً ذلك ، وأبى لويز الرابع عشر أن يحقق له هذه الأمنية لأسباب ارتأها ، وعلل خارجية يعقلها من يعلم بوقوع هذه لشئون بين من لا يمد من الخاطبين ومخطوباتهم في سائر الطبقات ، لكننا وبالأسف والأسف لم نقف ولا وقف غيرنا ممن أجهد نفسه في البحث قبلنا على ما ثبت ذلك ، فليس هنالك نص محفوظ ، الدوائر الرسمية يتضمن ذلك ، وليس هنالك جواب يدل على جود هذا الكتاب من والد المخطوبة ، والجواب ضروري ولا شك حسب القواعد الجارية ، ولا سيما في مثل هذه المهمة التي سبحت الشغل الشاغل لكثير من الباحثين ، والتي يريد إثباتها كثير من المستشرقين ، بل والشرقيون كذلك من غير التفات ، مصدر وثيق ، ولا نص رسمي صريح يحمل على اليقين . على ، لو كان هنالك كتاب لكان عنه جواب بالطبع ؛ ولو كان الك جواب لحفظ أصله من غير ارتياب ؛ ولو كانت هنالك بية حقيقية من جلالة الخاطب في هذا الأمر لوقع منه ما يؤيده ، مراجعة الملك المخطوب إليه بواسطة نائبه الذي كان بمثابة راجع الخارجية إذ ذاك ، وكان يقيم ، في الغالب ، بشتر طنجة ، انت الأمور الخارجية ، كيفما كانت ، متوسطة به من جانب السلطان ذلك الدهد ، وما ذاك إلا لتكون هذا الكتاب يقتضى بنصه رريح شدة رغبة مولاي اسماعيل في ذلك ، فكيف يمكن أن ين راجباً فيه متملقاً كل التعلق به ولا يراجع المخطوب إليه ، يخاطبه في شأنه بمكاتيب رسمية تفصح عن مراده تمام الإفصاح ؟ ، مما ينقض هذه القضية بوضوح ، وبصيرها في حيز المدم . ل مؤرخو أوربا لهذه القضية سيكاً غريباً نمدن نحن ، بحسب يدنا الدينية وتقاليد ملوكنا النوردين المظلاء ، من قبيل الروايات شئت بالخيال الكاذب . أتدري ما هو هذا السبب ؟ هو وصف عائشة تلك الفتاة الجميلة لمولاي الجدة اسماعيل وصفاً كاشفاً